دور التربية والتعليم في تنمية اللغة العربية

الدكتور علي الشنوفي

استاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الانسانية — تونس

تساؤلات عديدة تبادرت الى ذهني وانا احاول معالجة هذا الموضوع ، تساؤلات ادرتها حول مفهوم التنمية للغة العربية ثم على اى صعيد تكون هذه التنمية ؟

فنحن ماذا نعنى بطرحنا هذه القضية على بساط البحث ؟ أنعنى التنمية من حيث الانتشار ؟ .. أم نحن نعنى التنمية من حيث الوفرة والغزارة ؟ .. او اننا لا نعنى الغزارة اللغوية وانما نعنى التنمية للغة العربية من حيث ثراء الانتاج الادبى والثقافى ؟ او اننا لا نعنى شيئا من ذلك كله وانما نعنى امرا آخر .. ؟

فاذا ما نحن عنينا بالتنمية والانتشار تذكرنا ما هو مقرر عند الخاص والعام من ان اللغة العربية منتشرة وكثرة الناطقين بها على وجه البسيطة دليل دامغ ليس بعده من دليل على انها اللسان القومى لما يقارب المائتى مليون من البشر موطنهم يمتد من المحيط الى الخليج ثم اللغة العربية هى اللسان المقدس لما يزيد على الخمسمائة مليون من المسلمين منتشرين فى ارض الله هى اداة يقيمون بها صلواتهم وشعائرهم الدينية ؟

واذا نحن قصدنا من التنمية مفهوم الغزارة اللغوية اقررنا بشيء من الاندهاش بأن اللغة العربية من هذه الوجهة قد جاوز ثراؤها الحد ، اذ عدد الالفاظ العربية يفوت الستة ملايين لا يستعمل منها الا قرابة الستة آلاف مفردة والباقى مهمل ، مع العلم بأن اللغة العربية تقتنى ثروتها هذه من اصولها الثلاثية والرباعية والخماسية وتضم اليها نظاما متكاملا لا يختل فى الاشتقاق ونظاما متطورا فى النحت بحيث تصارع غيرها من اللغات الكبرى .

واذا نحن فحصنا مفهوم التنمية للغة العربية على صعيد الانتاج الادبى ، وجدنا ان اللغة العربية قد اصدرت فى الماضى البعيد والماضى القريب ادبا قيما وتصدر اليوم ادبا رائدا وكلا الادبين دليل ان احتجنا الى دليل على ان اللغة العربية قادرة مرة اخرى على ان تقوم بوظيفتها كأداة لتنمية الفكر البشرى .

واذا نحن حاولنا حد مفهوم التنمية للغة العربية على الصعيد الحضارى شهد التاريخ بأنها قامت بدور ايجابى الى ابعد حدود الايجابية فى اصدار ثقافة عالمية بأتم معنى الكلمة وانها ثبتت كوحدة لغوية الى يوم الناس فرسخت كلغة حضارة نطقا وكتابة قرابة

ستة عشر قرنا منها قرنان قبل الاسلام وذلك رغم مختلف الانقسامات المتكاثرة وتقلبات ضروب الاحداث المتنوعة ·

واذا نحن بحثنا فى مفهوم تنمية اللغة العربية على الصعيد الذاتى فأنفسنا تنبرى تلقائيا لتجيب بأن اللغة العربية هى لغة شعبنا هى اللغة الام هى مقوم من ابرز مقوماتنا وركن من اثبت اركان شخصيتنا القومية وعنصر من امتن عناصر ذاتيتنا اذ هى تنقل الينا تراث آبائنا وتتلقى عنا التراث الذى ستنقله الى الاجيال المقبلة ·

غير ان ما نبغى من مفهوم لتنمية اللغة العربية هو المفهوم الحركى الدينامى للتنمية هو المفهوم الذى يعنى الاجيال المقبلة وبذلك نفهم أن ما نصصنا عليه فى هذا العرض الخاطف من تقريرات واقرارات ليس هو فى حقيقة الامر والواقع سوى استحضار لماض مجيد ولحاضر نلمسه ونحياه والحال أن هذا الحاضر يوجب بكل تأكيد أن تطرح القضية على اساس البحث عن كيفية تنمية اللغة العربية تنمية تؤهلها للمساهمة بجد فى تهيئة عالم الغد عن طريقها هى لا عن طريق ضرة لها اذ قديما كان يؤلف باللغة العربية فى الطب والفلك والهندسة والرياضيات ·

فما يمنع اللغة العربية من أن تكون اليوم وغدا لغة العلوم العصرية والفنون الصناعية ؟ ان اللغات كائنات تحيا ككل كائن بخضوعها لنواميس الهيكلية البنيوية للحياة واللغة الحية هى التى تصهر بطريقة متواصلة مستمرة عناصر جديدة تتقبلها وتلغى ما لم يبق لها صالحا من عناصر · فاللغة تجدد ككل كائن حى ولا تحيا اللغات الا فى افواه الناطقين بها واللغة العربية لا تشذ عن القاعدة الهيكلية الطبيعية فهى على شاكلة القوم الذين يتكلمونها وهم ان ارادوا لها الحياة مطالبون باخضاعها لاغراضهم المختلفة وحاجاتهم المتجددة ·

ليس احد يجهل أن اللغات لا تحيا بتقارير اساتذة الجامعات ولا بالاسانيد ولا بالحيثيات والاحكام وانما تحيا اللغات بالاستعمال والممارسة واين يكون استعمال اللغة العربية ان هى لم تعلم وتمارس الاسرة وفى المدرسة وفى المجتمع ؟

ان هذا الامر يفرض علينا نبذ الانطوائية حتى لا يصبح هذا الثراء الذى تتمتع به اللغة العربية على مختلف الاصعدة والذى من واجبنا الحفاظ عليه عبئا ثقيلا قد يعرقل أو يمنع مسيرة اللغة العربية فى النمو الذى معناه مواكبة الناطقين بها ما يجد فى الحياة·

فالتنمية المقصودة اذن هى التنمية على صعيد العلوم الحديثة وهى تنمية تكون لها جذور فى الالفاظ وفى الحضارة معا · ومعنى ذلك أن العلوم الحديثة التى غزت وتغزو جميع ميادين الحياة هى علوم لا تزال اللغة العربية على عتبة ابوابها بالرغم مما انجز وينجز فيما يتعلق بالعلوم الانسانية وخاصة الالسنيات وعلوم الاجتماع وعلوم التحليل النفسى وهى ميادين تأصل للغة العربية فيها ثراء لغوى بفضل مختلف الوسائل الاعلامية المعاصرة ·

ان الرهان الحقيقى الذى على اللغة العربية أن تكسبه انما يتمثل فى قيامنا أو عدمه نحن رجال الفكر والعلم الناطقين بالضاد بمسؤوليتنا أمام الاجيال الصاعدة واللاحقة معا تلك الاجيال التى نريد لها لغة حية مرنة طيعة لغة عربية صالحة لاداء وظيفتها تمتاز بما تمتاز به اللغات العصرية من سهولة التركيب ودقة التعبير ووضوح التبليغ لغة قادرة على السير فى صعيد الحضارة وركب التقدم لغة تحقق التفتح لمقتضيات الروح العلمى الجديد . .

ولا يفوتنا فى هذا المجال تأكيد الاعتراف بكل شجاعة وبكل جدية وبكل موضوعية بأن اسهام الاجيال الصاعدة فى ممارسة شؤون حياة المستقبل يوجب علينا لاستكمال مقوماتنا وتدارك تأخرنا الناتج عن قرون الانحطاط والهيمنة الاجنبية أن ننهل مباشرة فى الوقت الراهن من ينابيع الثقافات والحضارات الاخرى اذ القضية المطروحة فى هذا اللقاء هى فى نظرى ليست قضية اللغة العربية بوصفها فقط كأداة لنقل المعرفة وانما هى قضية الادمغة القادرة على استساغة المعرفة المعاصرة بمفهومها الاقتصادى والعلمى والتقنى والتكنولوجى ·

ان المعرفة التقنية والتكنولوجية التى نريد بل يحتم علينا ضمان المصير تحقيقها لدى الاجيال الصاعدة هى معرفة تتطلب لتتم وتؤتى اكلها ارضية تقنية تكنولوجية يتوقف وجودها على ايجاد الخبراء وهؤلاء

انما تتولى المدرسة خلقهم فالتعليم هو الاداة المحققة لهذه الغاية ·

وفى هذا الصدد لا ننسى المجهود الجبار الذى بذلته وتبذله الدولة التونسية منذ الاستقلال فى سبيل نشر التعليم وديمقراطيته على اساس نظام تعليمى يمكن التونسى من بلوغ كمال انسانيته وتحقيق مصيره · فالتعليم وخاصة الجامعى منه يسعى لتخريج المثقفين الذى يستطيعون الاطلاع على الثقافة العالمية وعلى تحير الصالح منها لمجتمعنا وعلى المشاركة فى ركب الحضارة ·

والجدير بالملاحظة فى قضية تنمية اللغة العربية هو ان التعريب لاداة العلم لا يعنى حذف اللغات الاجنبية · فالجامعات بالبلاد العربية وبضمنها جامعتنا التونسية صرحت بأن اللغة العربية لا تصلح الآن للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضيات وطبيعة ونبات وحيوان وغيرها لقيام عدد من العوائق يحول دون استخدامها فيها وحافظت كلها ما عدا سورية والمملكة العربية السعودية على تدريس العلوم الصحيحة بالانجليزية كما هو الشأن بمصر والسودان والعراق (*) وبالفرنسية فى لبنان والجزائر والمغرب الاقصى وتونس ·

ان البلاد التونسية فى هذا المجال لم تقلب لغة التعليم بين عشية وضحاها من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية وانما خططت ذلك فى تدرج ولا يفوتنى فى السياق أن أذكر بما جاء فى المحاضرة التى القاها فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة يوم 11 ماى من سنة 1968 بجامعة مونريال بكندا حين قال :

اما على الصعيد اللغوى فاننا لم نكن نشعر كما لا نشعر اليوم بأى مركب · ولقد استبقينا اختيارنا للغة الفرنسية كما كان الحال فى عهد الاستعمار · ولم يكن شىء يحملنا على العدول عن اعتماد لغتين معا بعد الاستقلال · ولم يكن بوسعنا أن نسمح لانفسنا بأدنى تبذير لطاقتنا ، ولا بأية اضاعة لاوقاتنا ، ولم نكن فى الواقع لنتمسك بالاوهام فيما يتعلق بهذا الموضوع · ان ادراكنا كان دقيقا بضرورة سلوك مسلك الجد والواقعية الذى تقتضيه تلك المغامرة المتمثلة فى ممارسة الحرية وتلك المغامرة الاخرى الماثلة فى اقامة اسس الدولة وتنظيم اقتصادها · واذا كان هذا حالنا وهذا اتجاهنا فكيف تحدثنا انفسنا بالرجوع الى الوراء لنستقى معيننا من منابع ثقافة منفردة ، أو بالاستسلام الى اوهام عاطفية تكون عاملا من عوامل التقهقر ·

على اننا حين نتحدث عن تونس فاننا لا نوفى الكلام حقه عند ما ننوه بازدواج لغتها · والحقيقة تقتضينا أن نقول ان لها ثقافة مزدوجة · فتونس لا تتنكر لشىء من ماضيها الذى تعبر عنه اللغة العربية · وهى تعلم ان الفضل فى مشاركتها الكاملة فى ثقافة العالم المعاصر وفى حياته ، يعود الى حذقها اللغة الفرنسية · ولقد اثبتت التجربة التونسية أن اللغة تساعد على اقرار الهياكل واثباتها · وهذا ما خبرته تونس ، واؤكد لكم ان هذه التجربة لم تأت عفوا وانها صادرة عن ادراك دقيق ·

ان النظر فى التطبيقات الفعلية لتنمية اللغة العربية على صعيد التربية والتعليم يجعلنا نكتشف عوائق من بينها أن التعليم ان كان يمكنه أن يحول بصفة ملموسة تطوير اللغة العربية فى الفاظها وهياكلها البنيوية والفكرية والوجدانية مما فهو لا يمكنه ذلك بدون تحقيق تنمية للثقافة نفسها الامر الذى يجر حتما الى الاعتراف بأن الاختيار القومى لفائدة تعلم اللغات الاجنبية والفرنسية منها خاصة هو رغم مشاكله المعروفة فى التطبيق اختيار لتنمية شاملة بأتم معنى الشمول اول المستفيدين منها اللغة العربية ·

ولسائل ان يسأل واين هى العوائق اذن ؟ القضية ليست بسيطة وانى ارتكز فيما اقول على نتائج اعمال المؤتمر العام الذى عقده اتحاد الجامعات العربية فى فيفرى من سنة 1973 وعلى الاستفتاء الذى اضطلع به المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى بالرباط سنة 1966 · ذلك أن الآراء جميعها تتفق على ان اللغة العربية هى الاداة الطبيعية للتعليم على اختلاف المستويات والعلوم لكن ينقصها الصفات التى يطالب بها اصحاب هذه العلوم ومن أوكد تلك الصفات هى تلك التى تتمثل فى وجود اطار تدريسى للمناهج التعليمية اذ التعليم عملية متصلة مترابطة الحلقات

(*) كان الطب فقط يدرس بالانجليزية فى العراق ثم شمله التعريب — (اللسان العربى) ·

لا ينفصل فيها التعليم الجامعى عن التعليم الثانوى والابتدائى وذلك يقتضى ان تكمل مناهج كل مرحلة مناهج المرحلة التى تسبقها وان لم يتحقق ذلك ضاعت الجهود سدى ·

ثم بخصوص تعليم اللغة العربية نفسها أفصحيح ان رجال التعليم لهم خبرة بالعلوم الحديثة او على الاقل بالبعض منها وهو ما تعارفنا على تسميته بالتكوين الاساسى يمكنهم من المساعدة على تعصير اللغة العربية ؟

ثم على صعيد مرحلة التعليم الابتدائى الذى يعد اليوم فى تونس زهاء التسعمائة الف طفل افى امكان المعلم غير المطلع ولو على العناصر الاولى الضرورية لتلك العلوم الحديثة أن يلقن تلاميذه شيئا آخر غير تلك اللغة المتجمدة استغفر الله اللغة العتيقة التى كلنا يعترف بأن البون بينها وبين المفاهيم الجديدة موجود · فنحن نخشى أن يكون ذلك ثقلا على ذاكرة جيل صاعد مصيره العيش فى حياة معاصرة ·

فكم من معلم عجز فى كثير من الاحيان على اجتياز العقبات التى تعترضه اثناء التدريس · لقد قال رئيس الدولة فى الخطاب الذى القاه بمناسبة اشرافه على مهرجان نهاية السنة الدراسية فى 25 جوان سنة 1958 : أريد ان الاحظ ان التعليم بالمدارس الثانوية سيكون متجها الى التعريب واستعمال اللغة العربية حيث تكون لغة التدريس لجميع المواد ..

نعم هذا الرهان نحن بصدد كسبه ولكن ؟ .. يجب الاعتراف بأن العربية كلغة واداة تشكو على صعيد التعليم الابتدائى أمورا منها قلة الادوات ومنها مضامين وأساليب تكاد تكون قاصرة رغم محاولات التجديد المحتشمة ومنها فقدان روح المعاصرة فى اكثر من موطن ومنها خاصة عدم سيطرة جانب وافر من الاطار على آلياتها الاولى وهذا كله من شأنه أن لا يساعد على تنمية اللغة العربية لغتنا الام · ان التعليم يجب أن يكون محوره دعائم جوهرية اربع او لا يكون : اللغة العربية ، اللغة الاجنبية ، الرياضيات ،التقنيات.

ومن الواجب ان تكون الثقافة العامة متزايدة التفتح على العالم المعاصر وذلك انما يتحقق باستعمال الطرق البيداغوجية الجديدة التى تعتمد اكثر فاكثر دراسة الوسائل الذى يكتنف الطفل · وكذلك يحصل بتنمية تعليم هو معرفة العالم بما فى ذلك العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافية وادب .. الخ كما يشمل مفاهيم جديدة للتربية الاقتصادية والمدنية ودراسة الدواليب الاجتماعية والسياسية · ومن جهة اخرى فان تعليم اللغة العربية انما نحقق له النمو والتطوير بالاقلال من تركيزه على دراسة النحو والصرف والادب الكلاسيكى وبالاكثار من التدرب على اللغة باعتبارها اداة تعبير وتواصل · وهذا المفهوم للتنمية على صعيد اللغة العربية يفرض علينا تحوير برامجنا فلماذا لا نجرؤ فنحول الامور · انى شخصيا اطلعت على برامج التعليم بالبلاد الاسكندينافية فى الصائفة الماضية واذكر هنا مقتطفا من برامج المرحلة العليا للمدرسة الموحدة التى يعادلها عندنا اقسام المرحلة الاولى من التعليم الثانوى ففى هذا البرنامج يوجد التنصيص التالى : يستعمل التلميذ اللغة الام فيما يلى : محادثات — عروض قصيرة — استجوابات — تمارين مسرحية — ارتجال تمثيليات سهلة — دراسة نصوص مختلفة — التعبير عن المشاعر والاحاسيس — النقد — كيفية استعمال المعاجم — كيفية استعمال دوائر المعارف — كيفية استعمال الدوريات — قراءة الصحف — قراء نصوص لخيرة الكتاب وخاصة المعاصرين — انشاءات فى الوصف والقصة وكتابة الرسائل — كيفية القيام بحوصلات — دراسة الالفاظ والتراكيب ومعلومات عن تاريخ اللغة · بهذا المقتطف من البرنامج الرسمى لمدرسة سويدية نرى الفارق الموجود فى المستوى نفسه من التعليم بين ما فى السويد وبين ما عندنا فى تونس فنحن ما زلنا نتبع المناهج الفرنسية فى تعليمنا .. بينما فرنسا نفسها تحور .. ان الهدف اذن من تنمية اللغة عن طريق التربية والتعليم ليس تمكين المتعلم من حشد مجموع من المعارف دفعة واحدة وانتهى الامر بل الهدف من التعليم هو ان يتعلم التلميذ كيف يتعلم ومعنى ذلك اكتساب ادوات التربية المستمرة طيلة الحياة واكتساب الوسائل الكفيلة لتحقيق التلاؤم مع التحولات كلها الطارئة والتى قد تطرأ ·

على هذا العرض الخاطف نفهم بوضوح مصدر العوائق فى سبيل تنمية اللغة العربية · ان الانسان الذى لا يزال يعيش فى اطار اللغة العربية بصيغها التقليدية قد يحمل هذا الانسان حملا تلقائيا وربما لا شعوريا على أن يفتح عينيه على الماضى بدلا من فتحهما

على المستقبل .. ومن الممكن ايضا ان يكون محمولا على الشعور بالنفرة تجاه التجديد اللغوى لانه يشعر بفقدان شيء وفى الحقيقة والامر الواقع نحن انما نريد تنمية للغة العربية من شأنها ان تمكن الاجيال الصاعدة من الانعتاق ومن التفتح ومن الشعور بأنها تواكب عالما جديدا هو عالم من واجب جيل الغد ان لا يقتصر فيه على الاستهلاك بل عليه ايضا المساهمة فى اثرائه ·

ان هذا المنهاج الذى نتحدث عنه قد بدأ الشروع فى ممارسته لان الصحف والمجلات منذ ما يزيد عن القرن ثم وسائل الاعلام العصرية اليوم من اذاعة وتلفزة هى دائبة فى القيام برسالتها ولا تنفك تقدم للمستهلك من قراء ومستمعين ونظارة مبادىء العلوم العصرية وبذلك ساهمت وتساهم فى عملية فتح الاذهان على الاكتشاف العلمى للكون وعلى تنمية ملكة الملاحظة وعلى تعويض مثالية رومانسية بتحليل هادىء للاحداث ·

ويكفينى لحوصلة مقالتى أن ابرز أن نمو اللغة العربية يرادف نمو الانسان العربى ضرورة ان محاولة قصر اللغة على ما هو مكتوب قد يعتبر نسيان أن التونسيين أحياء وهم يخضعون لسنة الحياة القاضية بالتحول والتجدد فى حركة مستمرة كل يوم وليلة ·

وسواء اكانت اللغة التى يتخاطب بها التونسيون تتماشى او لا تتماشى مع قواعد الحسن الكليسيكى وسواء اكانت رائقة بديعة أم لم تكن فتلك اللغة انما هى الحياة ، الحياة التونسية ، الحياة المنبثقة المتفجرة ..

وتلك اللغة التى نكتب وتلك اللغة بها نتكلم تلك اللغة تكشف عما نريد أن نكون ..

فتنمية اللغة العربية تعنى فى نظرى تنمية الحياة. لكن اسمحوا لى بهذين السؤالين :

اذا كان فى الامكان المساهمة فى تنمية الحياة أمن اليسير تقنينها ؟

والمجامع اللغوية التى تبذل جبار الجهود فى تقنين اللغة العربية ما قولها فى الموضوع ؟